رحلات حول العالم للكابتن جيمس كوك

بقلم
الدكتور سليم أنطون
قسم علوم البحار بكلية العلوم – جامعة الاسكندرية

عشر سنوات ذهبية فى تاريخ الكشوف الجغرافية ، هى نفسها سنوات مجيدة فى حياة جيمس كوك . ففى ٢٨ أكتوبر ١٧٦٨ احتفل كوك بعيد ميلاده الأربعين على ظهر سفينته « انديفر » ، وهو فى مستهل رحلته الأولى حول العالم . وفى ١٤ فبراير ١٧٧٩ سقط قتيلا على شواطئ هاواى فى نهاية رحلته الثالثة ، بعد أن جاوز الخمسين ببضعة أشهر . وفى خلال هذه السنوات العشر كان كوك قد « أعاد رسم خريطة العالم » ، بعد أن استكشف أو أعاد استكشاف كثير من جزر المحيط الهادي ونيوزيلانده ، والساحل الشرقى لأستراليا والساحل الغربى لأمريكا الشمالية حتى مضيق بارنج شمالا . كما استطاع أن يلقى نظره على القارة القطبية الجنوبية وأن يتنبأ بوجودها .

قصة الكشوف الجغرافية :

لا تكاد توجد الآن بقعة فى العالم لم تستكشف بعد . وباستثناء بعض الأماكن المنعزلة فى القارة القطبية الجنوبية فان هناك القليل الذى يمكن إضافته إلى خريطة العالم . ولكن الأمر لم يكن كذلك فى عصر كوك أى منذ مائتى عام حين كان العالم يجهل تماماً وجود القارة القطبية الجنوبية ، وكان وجود أستراليا ونيوزيلاندا وكثير من جزر المحيط الهادى ضرب من الحدس والتخمين ومنذ خمسة قرون فقط لم يتمكن العالم القديم يعرف شيئاً عن أمريكا ، ولم تكن استدارة الأرض قد ثبتت عملياً بالدوران حولها .

لم تكن الحضارة المصرية القديمة حضارة نهرية فقط بل إنها كانت تحمل أيضاً ملامح الحضارات البحرية فأنشأت الموانىء على سواحل البحرين الأحمر والمتوسط وبنت الأساطيل التى قامت برحلات بعيدة مثل رحلة حتشبسوت حوالى ١٥٠٠ قبل الميلاد إلى بلاد البونت أو الصومال . واشتهر الفينيقيون كملاحين مهرة جابوا البحر المتوسط واستكشفوا شواطئه ، بل إنهم غامروا بالخروج إلى السواحل الأوربية والأفريقية المطلة على المحيط الأطلنطى . أما الإغريق فقد مدوا تجارتهم البحرية إلى شواطئ البحر الأسود وحملتهم غزوات إسكندر الأكبر حتى الهند شرقاً مما أضاف الكثير إلى معلوماتهم الجغرافية . ولم يكن الرومان بحارة بارعين ولكن غزواتهم حول البحر الأبيض المتوسط وعلى الأخص فى أسبانيا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا ، وسعت دائرة المعارف الجغرافية .

وفى خلال القرون الثمانية التى أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية حوالى عام ٤٠٠ انتقلت حركة الكشوف الجغرافية إلى العرب وأهل الشمال . جاب العرب المحيط الهندى ووصلوا فى رحلاتهم التجارية إلى مدغشقر وموزامبيق فى الجنوب وإلى الهند وسيلان والصين فى الشرق . أما أهل الشمال فقد عبروا من النرويج إلى أيسلنده ومن اسكتلندا إلى جرينلاند ومنها إلى سواحل اللبرادور فى شمال أمريكا .

وباندلاع الحرب الصليبية توقفت التجارة بين الشرق وأوربا ، وقاطع العرب كل الدول الأوربية عدا البندقية التى احتكرت التجارة مع العرب وكونت ثروات طائلة من بيع منتجات الشرق إلى بقية أوربا ، مما دفع البرتغال وجنوه إلى محاولة الوصول إلى الهند عن طريق الدوران حول أفريقيا .

وهكذا بدأ عصر الكشوف الجغرافية بمحاولات البرتغاليين الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الهند وجزر التوابل والتى انتهت بنجاح فاسكودى جاما عام ١٤٩٨ . وفى نفس الوقت تقريباً عبرت السفن الأسبانية المحيط الأطلنطى تحت قيادة كريستوفر كولومبوس واكتشفت جزر الهند الغربية ، وإن كان قصدها الأصلى الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالابحار غرباً . واصل الأوربيون بعد هذا استكشاف السواحل الأمريكية من الشمال إلى الجنوب بقصد العثور على منفذ يؤدى إلى جزر التوابل فى الشرق . وفى عام ١٥١٩ تمكن ماجلان على رأس بعثة أسبانية من اختراق المضيق الذى يعرف باسمه فى الطرف الجنوبى من القارة الأمريكية ، ثم الابحار شرقاً فى المحيط الهادى والوصول إلى جزر الهند الشرقية ، فكان بحارته أول من استطاعوا الابحار حول العالم .

احتكر البرتغاليون الطريق حول أفريقيا ، والأسبان الطريق حول أمريكا الجنوبية ، وظلت لهما السيادة البحرية تاركين إنجلترا وهولندا وفرنسا يحاولون الوصول إلى الشرق بالبحث عما كان يعرف « بالممر الشمالى الغربى » فى شمال أمريكا الشمالية و « الممر الشمالى الشرقى » فى شمال آسيا ولكن هذه الجهود الجريئة لم تحقق أى نجاح حتى تمكنت هذه الدول من هزيمة أسبانيا والبرتغال ومن ثم اتجهوا إلى الجنوب أيضاً .

وبتغير القوى البحرية فى أوربا ، أصبح من الطبيعى أن يتغير اتجاه هذا النشاط فبينما كانت الكشوف الجغرافية الكبرى من نصيب أسبانيا والبرتغال خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر نجد أن هذا النشاط انتقل إلى هولندا وإنجلترا وفرنسا وروسيا . وبنهاية القرن السادس عشر بدأ الهولنديون والإنجليز الاتجار مع الهند . ولما كانت أستراليا تقع خارج الخطوط الملاحية بين أوربا وجزر الهند الشرقية ، فان سواحلها بقيت دون أن تستكشف بدقة حتى عصر كوك .

هذه لمحة سريعة عن التقدم الذى أحرزته البشرية فى الكشوف الجغرافية قبل عصر كوك . وقد قصدنا بها أن نعرف العالم الذى ولد فيه كوك قبل أن نتحدث عن الرجل .

حياة جيمس كوك :

ولد جيمس كوك فى ٢٨ أكتوبر ١٧٢٨ فى قرية صغيرة فى منطقة يوركشير بالقرب من ميناء ويتبى المطل على بحر الشمال . وقد نشأ فى أسرة فقيرة مما اضطره إلى مغادرة المدرسة ليعمل أجيراً مع والده فى الزراعة . وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره كان يشتغل كبحار تحت التدريب على ظهر مركب صغير يعمل فى تجارة الفحم بين شمال وجنوب إنجلترا . واستغل أوقات فراغه فى دراسة الرياضة والملاحة حتى ليقال إنه ، عندما انتهى من فترة تدريبه ، كان يعرف من الملاحة أكثر من أى مستكشف سبقه إلى المحيط الهادى . وسرعان ما أصبح كوك ضابطاً فى البحرية التجارية وهو فى الرابعة والعشرين من عمره وكان يستطيع أن يحصل

على وظيفة ربان لو قنع بالعمل على السفن التجارية .

وعندما اندلعت الحرب بين المستعمرين الإنجليز والفرنسيين فى شمال أمريكا عام ١٧٥٥ ، وجد كوك فرصته فى ارضاء طموحه فى العمل فى المياه البعيدة فتقدم متطوعاً إلى البحرية الإنجليزية كبحار بسيط ، وعمل على ظهر السفينة ايجل تحت امرة الكابتن سير باليسر ، الذى سرعان ما اكتشف كفاءته وخبرته . نال كوك ترقيات سريعة واشترك كضابط فى الحرب الدائرة فى شمال أمريكا ، ولكن هذه المشغوليات لم تبعده عن كتب الرياضة والفلك وغيرها حتى يرفع من مستوى تحصيله فى المدرسة . وكان الإنجليز يستعدون لمهاجمة كيوبك وانتزاعها من أيدى الفرنسيين ، وكان نجاحهم رهناً بقدرتهم على الملاحة فى نهر سانت لورانس فكلف كوك بعمل مساحة للنهر بين كيوبك والبحر ، وقام فعلا خلال أسبوع من العمل تحت جنح الظلام برسم خريطة دقيقة لهذه المنطقة ونجح فى ارشاد سفن الأسطول بتحديد المجرى الملاحى بوساطات عوامات حتى تستطيع السفن الكبيرة الصعود فى النهر دون عقبات واقترن احتلال الإنجليز لكيوبك بالمهمة التى قام بها كوك مما أكسبه حظوة لدى رؤسائه .

اشترك كوك بعد ذلك فى استعادة نيوفوند لاند عام ١٧٦٢ وقام بعمل مساحة جزء من الشاطئ فعين فى وظيفة « مساح بحرى لساحل نيوفوند لاند واللبرادور » وظل فى هذه الوظيفة حتى عام ١٧٦٧ ، أعد خلالها عدداً من المجلدات فى الارشاد الملاحى لهذه المنطقة ، والتى صدرت (١٧٦٦ — ١٧٦٨) تحمل دليلا على كفاءته وتمكنه من علوم المساحة البحرية . وفى خلال هذه السنوات أيضاً ارتفع صيته كرياضى وفلكى برصده الكسوف الشمسى فى ٥ أغسطس ١٧٦٦ ، وكتاباته فى المجلة العلمية « المراجعات الفلسفية » .

وفى عام ١٧٦٨ كانت الجمعية الملكية — وهى أكبر هيئة علميه فى بريطانيا — تعد العدة لارسال بعثة إلى مكان قصى من العالم لرصد كوكب الزهرة . فمن المعروف أن كوكب الزهرة — مثله فى ذلك مثل عطارد — أكثر قرباً إلى الشمس من الأرض إليها ، وأنه يدور حول الشمس فى مدار داخل مدار الأرض حولها . وفى أوقات معينة نادرة تمر الزهرة بين الأرض والشمس فعلا بحيث تتحرك على وجه الشمس كنقطة سوداء ويترقب الفلكيون حدوث هذه الظاهرة لأنهم يستطيعون من تعيين المدة اللازمة لعبور الكوكب حساب المسافة بين الأرض والشمس . وتستلزم هذه العملية رصد الكوكب من نقطتين تفصلهما مسافة بعيدة على سطح الأرض . وقد وقع الاختيار حينئذ على جزيرة تاهيتى فى جنوب المحيط الهادى لمشاهدة عبور كوكب الزهرة . وعرضت الأدميرالية ارسال سفينة تحمل البعثة العلمية إلى هذه الجزيرة التى كان كابتن « واليس » قد اكتشفها حديثاً لحساب بريطانيا .

عاد كوك إلى إنجلترا بعد أن كانت ترتيبات الرحلة قد تمت فوقع الاختيار عليه — وهو فى الأربعين من عمره — لقيادة هذه البعثة . ومنذ هذه اللحظة سوف نرى أن حياة جيمس كوك ترتبط بالبعثات الكشفية الثلاث التى قادها والتى وصفها فى يومياته الشهيرة بحيث يصعب علينا أن نفصل بين حياة كوك ورحلاته ويومياته ، مما يدعونا لأن نعالج هذه الموضوعات كعناصر متداخلة فى دراسة أكثر شمولا .

عصر جيمس كوك :

أدت اكتشافات كوك إلى إلقاء الضوء على خريطة العالم ، فاستطاع برحلاته أن يرفع الحجاب عن بقاع كانت مجهولة للعالم المتحضر ، وأن ينفى ويدحض كثيراً من الشائعات والنظريات عن وجود معالم جغرافية خيالية . وحتى نتبين الدور الذى لعبه كوك ، ونتمكن من تقويم جهده ونتائجه فاننا نعرض هنا إلى حدود العالم فى عصر كوك ، والمعلومات التى كانت تحت يده

عن الأراضى التى اكتشفها فيما بعد ، وعن النظريات التى كانت تراود العلماء وتشغل حيزاً من معتقدات الجغرافيين والملاحين فى ذلك العصر .

فمع انتهاء القرن السادس عشر كان هناك تقدم واضح فى معلومات الأوربيين عن توزيع اليابس والماء على سطح الأرض . واحتلت أمريكا مكانها كمساحة شاسعة من اليابس على خريطة العالم . وأخذت الرحلات خلال القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر تسد الثغرات فى معلوماتنا عن خريطة العالم ، وعلى الأخص فى المحيط الهادى ، أضخم المحيطات وأحدثها اكتشافاً . ولكن « المحيط الجنوبى » ظل يمثل مساحات ضخمة من المياه التى لم تبحر فيها أية سفينة . فحتى رحلة كوك الثانية لم تكن الدائرة القطبية عند خط عرض ٣٠َ ٦٦° جنوباً قد عبرت بعد ، بل إن عدداً قليلا من السفن كان قد أبحر حتى ٣٠° جنوباً . وطبيعى أن تبقى هذه المياه مثارا لخيال الجغرافيين والملاحين ، وأملا يراود المستعمرين ومكاناً للتنافس بينهم ؟

شغل الجغرافيون والمستكشفون فى ذلك الوقت بثلاث قضايا هامة دار حولها كثير من النقاش ، وقدر لكوك أن يقدم للعالم — خلال رحلاته الثلاث — حلا لهذه القضايا الثلاث التى نعرض لها هنا .

أولا : القارة الجنوبية :

والتى عرفت حينئذ بأرض الجنوب المجهولة
(Terra Australis Incongenita)

بدأت الرحلات الهامة فى المحيط الهادى تتجه خلال القرن السابع عشر إلى البحث عن أرض ضخمة مجهولة إلى الجنوب من هذا المحيط . ويرجع أصل هذه العقيدة إلى العصور الكلاسيكية ، عندما اعتقد الجغرافيون بوجود أرض فى الأطراف الجنوبية من العالم . ووضع بطليموس الجغرافى هذه الأرض على الخريطة كجزء من اليابس يمتد بين أفريقيا وآسيا على طول المحيط الجنوبى . وبالرغم من أن كثيراً من آراء الجغرافيين القدامى قد تداعت وانتهت فى العصور الوسطى ، فان نظرية بطليموس بقيت ذات أثر قوى ، كما ظلت خرائطه كمرجع أساسى حتى اكتشف الطريق البحرى إلى الهند .

ووجدت الفكرة القديمة قبولا لدى كثير من مشاهير الجغرافيين فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، مثل الجغرافى الهولاندى « ميركاتور » ، الذى لم يضعها فقط فى خرائطه ، بل أنه برر ضرورة وجودها بأن مثل هذه الكتلة من اليابس لازم لموازنة القارات فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية . ورغم أن هذه النظرية التى تدعو إلى التوزيع المتوازن لليابسة على سطح الكرة الأرضية لم تقبل من الجميع ، فانها كانت عاملا أساسياً فى إحياء نظرية القارة الجنوبية .

وجاءت الكشوف المتتالية وكل منها يحمل بعض الأمل فى وجود مثل هذه القارة . فعندما عبر ماجلان المضيق الذى يعرف باسمه فى الطرف الجنوبى من قارة أمريكا الجنوبية ، كانت هناك أرض تمتد إلى الجنوب . وظلت خرائط الأوربيين تظهرها لسنين عديدة كجزء من القارة الجنوبية الضخمة . حتى أثبت سير فرانسيس دراك أن هذه الأرض التى تعرف باسم (Tiera del Fuego) ما هى إلا جزيرة صغيرة تنتهى جنوباً برأس هورن . ولكن نتائج بعض الرحلات الاستكشافية التالية كرحلات شوتن وكيروس وجانزون ظلت تؤيد هذا الاحتمال ، فقد اتجه معظم المستكشفين فى ذلك العصر إلى أن يأخذوا كل أرض جديدة تكتشف إلى الجنوب على أنها جزء من القارة القطبية الجنوبية . وظل هذا السؤال قائماً حتى عصر كوك : هل توجد حقاً هذه القارة الجنوبية وإذا كان الأمر كذلك فما هى طبيعتها وامتدادها الجغرافى ؟

ثانياً : القارة الاسترالية :

بدأ الهولنديون استكشاف واستعمار جزر الهند الشرقية ومنها وصلوا إلى سواحل أستراليا . ولكن هناك من يرى أن سفن أسبانيا والبرتغال بلغت أستراليا قبل الهولنديين . ويعتمد هذا الرأى على بعض الخرائط التى يرجع تاريخها إلى عام ١٥٣٠ . بينما يرفض جمهرة من العلماء هذا الرأى ويعتقدون أن هذه الخرائط تعتمد على الخيال أو على أحاديث الأهالى فى جزر الهند الشرقية .

جاء اكتشاف القارة الأسترالية متأخراً ، فقد كانت تقع خارج الخطوط الملاحية بين أوربا وجزر الهند الشرقية . وحتى عندما عرف بوجودها فان استكشافها واستعمارها تأخرا كثيراً بسبب التقارير غير المشجعة التى عاد بها الرحالون الأوائل الذين أبحروا على طول السواحل الغربية القاحلة ، ومن أمثلة هذه التقارير ما جاء فى وصف واحد منهم للشمال بأن « الجانب الأكبر منه صحراء ويسكنه فى بعض الأماكن قوم سود قساه متوحشون » !

استطاع الهولنديون فى القرن السابع عشر أن يطردوا البرتغاليين والإنجليز من جزر الهند الشرقية ويستولوا على تجارة التوابل . وكان أهم مركز تجارى لهم ميناء باتافيا فى جزيرة جاوه التى نعرفها الآن باسم جاكرتا . والواقع أن الهولنديين لم يحتلوا فعلا سوى جزيرة جاوه واكتفوا باقامة مراكز تجارية على الجزر الأخرى . وقد وجدت شركة الهند الشرقية الهولندية أن احتلال استراليا عملية غير اقتصادية . وخاصة أن التقارير الأولى للمكتشفين الأوائل لم تكن مشجعة . ومن ناحية أخرى فقد كان الهولنديون يرفضون أن يروا أوربياً آخر يستقر فى هذه الأرض لذلك أعلنوا ملكيتهم لها وادخلوها فى خرائطهم وأسموها هولندا الجديدة .

لعل أول من اكتشف استراليا هو وليم جانزون الهولندى ، الذى أبحر على طول الساحل الجنوبى لغينيا الجديدة ثم تابع رحلته جنوباً حتى وصل إلى مضيق كاربنتاريا فى شمال استراليا واستمر يتحرك على طول ساحله الشرقى حتى أجبرته عداوة الأهالى على العودة . ولكن أهم رحلة استكشافية تسبق رحلة كوك كانت بقيادة ابل تاسمان الهولندى عام ١٦٤٢ أى قبل رحلة كوك باكثر من مائة وعشرين عاماً ، وكان الحاكم الهولندى لجزر الهند الشرقية فان ديمن يرغب فى معرفة نطاق هذه الأرض الجديدة فأرسل بعثة بقيادة تاسمان ، الذى غادر باتافيا متجهاً إلى الغرب حتى جزر موريشياس فى المحيط الهندى ثم قفل عائداً إلى الشرق والجنوب الشرقى ليقع على جزيرة كبيرة أطلق عليها اسم أرض فان ديمن هى ما نعرفها اليوم بجزيرة تاسمانيا فى جنوب شرق أستراليا . ومن هنا اتجه تاسمان شرقاً مع الرياح الغربية حتى وقع بصره على نيوزيلاند ، فأبحر على طول ساحلها الغربى ومن هناك عاد إلى جاوه ماراً بشمال غينيا الجديدة .

يرى بعض الكتاب أن رحلة تاسمان كانت « فشلا رائعاً ! » فمن سوء حظه أنه دار حول استراليا دون أن يراها ، ولكنه استطاع بذلك أن يحصر المساحة التى يمكن أن تقع فيها القارة الجنوبية ، كما أثبت أن استراليا ليست جزءاً من القارة الجنوبية ، وإن كان قد توهم أن نيوزيلاندا جزء من القارة الجنوبية وبالرغم من هذا فان رحلة تاسمان تعد من أنجح الرحلات الكشفية فقد أدت إلى إضافة تاسمانيا ونيوزيلاندا وعدد آخر من الجزر الصغيرة إلى خريطة العالم ، وفتحت الباب على مصراعيه لرحلات كوك التالية .

ثالثاً : الممر الشمالى الغربى :

ذكرنا فيما سبق أن الطرق البحرية إلى جزر الهند الشرقية كانت تقع فى أيدى الأسبان والبرتغاليين ، بينما بقيت دول شمال غرب أوربا بعيداً عن هذا الميدان فى وقت كانت النزعات القومية تفرق بينها ، وكان

التنافس على المستعمرات والاتجاه إلى التوسع هو الصفة الغالبة بينها . وكان طبيعياً أن تتجه هذه الدول إلى البحث عن طريق آخر إلى الشرق ، وأن يكون بحثها فى مناطق لم تستكشف بعد . وانفرد الانجليز والهولنديون بمحاولة الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالابحار حول شمال آسيا شرقاً أو أمريكا غرباً . وقد بدأت محاولات البحث عن « الممر الشمالى الشرقى » فى شمال آسيا وانتهت أولا . ومن ثم اتجهت جهود الرحالة إلى العثور على « الممر الشمالى الغربى » على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية . وتتعاقب رحلات المستكشفين فروبشير الانجليزى (١٥٧٦ — ١٥٧٨) وجون دافيز (١٥٨٥ — ١٥٨٧) على نفقة تجار لندن ، ثم هنرى هدسون (١٦٠٩ — ١٦١٠) فى خدمة الهولنديين ، وباتون (١٦١٢) وبيلوت وبافين (١٦١٥ — ١٦١٦) وقد كشفت هذه الجهود عن تفاصيل كثيرة فى خريطة الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية ، ولكنها لم تنجح فى الكشف عن ممر يؤدى إلى المحيط الهادى . وبقيت هذه المشكلة معلقة ليعاود كوك المحاولة فى رحلته الثالثة .

* * *

هذه هى القضايا الثلاث التى شغلت بال الجغرافيين والملاحين والمستعمرين والساسة فى هذا العصر ، وقدر لكوك أن يغير بشكل حاسم فى أفكارهم جميعاً نتيجة للحقائق الجغرافية الجديدة التى عاد بها من رحلاته .

لم يكن كوك وحده فى الميدان ، ويجدر بنا أن نأخذ فكرة عن الرحلات المعاصرة له حتى نستطيع أن نقدر النجاح الذى حازه بالمقارنة بما أحرزه معاصروه من المستكشفين فى نفس المياه التى أبحر فيها كوك .

ففى عام ١٧٦٤ غادر جون بيرون إنجلترا ، بتعليمات للبحث عن جزر بيبس وجزر فالكلاند ولكنه لم يجد الجزر الأولى التى قيل إنها شوهدت عام ١٦٨٤ ، واستولى على مجموعة جزر فالكلاند التى توجد بالقرب من مضيق ماجلان ، حاسباً اياها جزر بيبس ، وكان بوجانفيل الفرنسى قد استعمرها فى رحلة سابقة . واستطاع بيرون فى رحلته عبر المحيط الهادى أن يكتشف عدة جزر وأن يقدم بعض الأدلة على وجود أرض إلى الجنوب ، وهو زعم لم تثبت صحته بعد ذلك .

لم تنجح هذه الرحلة كثيراً ، فتقرر ارســـال سفينتين بقيادة كل من واليس وكارتيريت ، ولكن السفينتين افترقتا عند دخولها المحيط الهادى ، واتخذتا مسارين مختلفين ، فاكتشفت الأولى جزيرة تاهيتى الكبيرة واكتشفت الثانية مجموعة جزر سانتا كروز ، وصححت موقع عدد من الجزر التى سبق اكتشافها .

وأسهم الفرنسيون فى هذا النشاط برحلات لويس انطوان دى بوجانفيل الذى قاد عامى ١٧٦٣ ، ١٧٦٥ رحلتين لاستعمار جزر فالكلاند ثم ذهب فى عام ١٧٦٦ ليسلم هذه الجزر إلى أسبانيا ومنها اتجه إلى ريو دى جانيرو حيث اصطحب معه سفينة تموين ليبدأ رحلة حول العالم عبر فيها المحيط الهادى بقصد البحث عن حل لمسألة القارة الجنوبية . فزار جزيرة تاهيتى بعد اكتشاف واليس لها ببضعة أشهر ، ثم اكتشف مجموعة جزر ساموا ثم زار عدداً من الجزر التى تقع إلى الشرق من استراليا ، ومنها اتجه إلى الساحل الشمالى لغينيا الجديدة فى طريق عودته إلى فرنسا التى وصلها عام ١٧٦٩ ، بعد أن غادر كوك انجلترا فى رحلته الأولى .

يوميات الكابتن كوك :

من تقاليد البحر أن يحتفظ قبطان السفينة بسجل يكتب فيه بانتظام الأحداث التى تمر بها السفينة . وعندما تكون الرحلة غير عادية ، والأصقاع التى تمر بها السفينة غير معروفة ، يصبح دفتر الأحوال هذا عملا له أهمية كبيرة ، وخاصة إذا كتبه قبطان مثل كوك ، ذلك العالم المدقق ، ذو الحاسة السادسة للكشوف الجغرافية ، والذى كان يعرف تماماً أبعاد المهمـــة المنوطة به ، ويعرف كيف يحققها على أكمل وجه

ممكن . ويوميات البحر هذه هي المصدر الرسمي لأى كشف جغرافى جديد ، ومرجع للعلماء فى التـاريخ للكشوف الجغرافية ، وخاصة عندما تتنازع الأمم شرف السبق إلى هذه الفتوح سواء عن رغبة علمية أو نزعة استعمارية . ولكن هذه اليوميات فى حالتها الأصلية تصبح عبئاً على القارئ الباحث أو القارئ العابر بما فيها من تفاصيل قد لا تمت بصلة كبيرة للموضوع الأصلى . لذلك يعمل أصحابها أو الناشرون على إعادة كتابتها بعد تصفيتها من التفاصيل غير الأساسية . وهذه اليوميـات لمشاهير المستكشفين تعطينا عادة صورة حية لظروف المعيشة على ظهر السفينة ، وانفعال الكاتب بالأرض الجديدة وأهلها ، والأهداف الحقيقية لهذه الرحلات ومدى نجاحها .

صدرت يوميات كوك على مراحل متتالية وتحت عناوين مختلفة . ففى عام ١٧٧٢ — ١٧٧٣ نشر دكتور هوكسورث كتاباً تحت عنوان « رحلات » وتولى فيه تحرير حكاية كوك عن رحلته الأولى تحت عنوان « وصف لرحلة حول العالم فى السنوات ١٧٦٨ — ١٧٧١ » .

أما قصة الرحلة الثانية فقد كتبها الكابتن كوك نفسه بالاشتراك مع جورج فورستر ابن الدكتور فورستر العالم الطبيعى ، واللذين صحباه فى رحلته الثانية وتولى دوجلاس إصدارها فى جزءين عام ١٧٨٤ تحت عنوان « رحلة إلى القطب الجنوبى وحول العالم » .

أما يوميات الرحلة الثالثة فقد قام كوك بكتابتها حتى مصرعه ثم تولى الملازم « كنج » — الذى رقى فيما بعد إلى قبطان — كتابة بقية الرحلة حتى العودة إلى انجلترا . وقد نشرت الرحلة الثالثة بوساطة دوجلاس أيضاً فى ثلاثة أجزاء عام ١٧٨٤ ، تحت عنوان « رحلة إلى المحيط الهادى . . . لعمل استكشافات فى نصف الكرة الشمالى » .

أثارت رحلات كوك كثيراً من الخيال ، وأقبل الكثيرون على قراءتها مما جعل الناشرين يتبارون فى إصدارها بمختلف اللغات وفى طبعات وأحجام عديدة وتحت عناوين متباينة . ويستطيع القارئ أن يتبين هذا الاقبال من مقدمة أحد الناشرين عام ١٨٣٣ ، والتى أعرض هنا جزءاً منها ، يقول الناشر « بين كل الملاحين الذين عرفهم العالم ، كان الكابتن كوك أكثرهم قدرة ومهارة كما فاقهم بكثير فى النجاح الذى حققه . وقد أخذ وصف رحلاته الثلاث ، منذ أمد طويل ، مكانا متفوقاً على أى أعمال مماثلة . فنشرت أعماله فى جميع الأحجام ، ويمكن أن يقال أنها أصبحت مرجعاً أساسياً للمدارس ، وجزءاً لا غنى عنه فى مكتبة رجل البحر » .

الرحلة الأولى :

كان الهدف الأول لهذه الرحلة هو رصد كوكب الزهرة من جزر تاهيتى أثناء عبوره عام ١٧٦٩ . ولكن الآمال الكبيرة فى احتمال الكشف على القارة الجنوبية دعت البحرية إلى تخصيص سفينة تحمل بعثة الجمعية الملكية إلى تاهيتى ثم تتجه بعد ذلك إلى القارة المنشودة التى كان الكل يعتقد أنها أكبر من أوربا وآسيا مجتمعتين وأنها سوف تفيض بالثروة والرخاء على أول دولة ترفع عليها علمها . تولى كوك قيادة هذه الرحلة وكان تمكنه فى علوم الفلك والملاحة قد رشحه لتولى رئاسة هذه البعثة العلمية ، التى كانت تضم عدداً من العلماء منهم شارل جرين الفلكى وجوزيف بانكس عالم النبات المعروف الذى منح لقب سر وانتخب فيما بعد عضواً بالجمعية الملكية وصار رئيساً لها لمدة تزيد على الأربعين عاماً ، وترك للمتحف البريطانى مجموعات نباتية لا تقدر بثمن . وقد صحب بانكس فى هذه الرحلة صديقه دكتور سولاندر وعدداً من مساعديه ، حتى يقوموا ببحوث فى التاريخ الطبيعى . وقد نجح كوك فى التعاون مع مجموعة العلماء وتيسير مهمتهم ، كما كان لحماس

بانكس واخلاصه وتعاونه مع كوك الفضل الأكبر فى النجاح الذى حققته البعثة . وقد أعطت هذه المجموعة من العلماء البعثة طابعاً جديداً لم تعرفه الرحلات المماثلة من قبل .

ووقع الاختيار على السفينة « انديفر » التى بنيت فى ويتبى لتجارة الفحم . وهى سفينة ذات ثلاثة قلاع تبلغ حمولتها ٣٦٨ طناً ، وتمتاز بغاطس صغير ، وسعة كبيرة وامكانية رفعها على الشاطئ لعمل الإصلاحات الضرورية وكانت هذه كلها كما أثبتت حوادث الرحلة مميزات كبيرة لسفينة سوف تبحر لمسافات طويلة فى مياه ساحلية لتتمكن من رسم الشواطئ الجديدة التى ستكتشفها .

غادرت « انديفر » إنجلترا فى ٣٠ يوليه ١٧٦٨ ، وهى تحمل ٩٤ فرداً على ظهرها . وفى يناير ١٧٦٩ كانت تمر بكاب هورن فى طريقها إلى المحيط الهادى وفى ١٣ أبريل بلغت مياه تاهيتى وبدأت فى الاتصال بالأهالى . وفى خلال ثلاثة أشهر من الإقامة استطاع كوك — بفضل النظام الدقيق الذى فرضه على بحارته — أن يحافظ على علاقات المودة مع الأهالى . وأخيراً جاء يوم ٣ يونيه المنتظر الذى ثبت كما يقول كوك « أنه صالح تماماً لأغراضنا كما كنا نرجو . فلم تر سحابة واحدة طول اليوم وكان الهواء شفافاً فحصلنا على كل ميزة يمكن أن نتمناها فى ملاحظة عبور كوكب الزهرة على قرص الشمس » وهكذا أمكن للبعثة أن ترصد الزهرة من مكانين أو ثلاثة على الجزيرة . وبالإضافة إلى هذا قامت مجموعة العلماء بعدة رحلات داخل الجزيرة وعلى طول الساحل لدراسة الجزيرة من عدة وجوه مختلفة .

وإلى هنا كانت المهمة المعلنة للبعثة قد انتهت ، ولكن الأدميرالية كان لها هدف آخر ، ففى مظروف مغلق كان كوك يحمل أوامر سرية بأن يتقدم من تاهيتى « إلى الجنوب بقصد الكشف عن القارة (التى توجد إلى جنوب مسار والاس) حتى تصل إلى خط عرض ٤٠° إلا إذا وقعت عليها قبل ذلك ، أما إذا لم تكتشفها أو أية علامات تدل عليها فى هذا المسار ، فعليك أن تتقدم للبحث عنها إلى الغرب ، بين خط العرض السابق ذكره وخط عرض ٣٥° حتى تكتشفها أو تقابل الساحل الشرقى للأرض التى اكتشفها تاسمان والتى تسمى الآن نيوزيلانده . . وإذا فشلت فى اكتشاف القارة . . فعليك عندما تصل إلى نيوزيلاند أن تلاحظ خطى العرض والطول اللذين تقع عندهما هذه الأرض ، وأن تكشف أكثر ما يمكنك من سواحلها بقدر ما تسمح حالة المركب ، وصحة بحارتها ، ومخزونك من الأكل»

وهكذا لم يكن رصد عبور الزهرة سوى الهدف المعلن لبعثه كان الهدف الحقيقى لها هو الكشف عن القارة الجنوبية ، وإضافة أرض جديدة للامبراطورية . وقد زود كوك عند سفره بكثير من المعلومات والخرائط والمراجع ، كان بينها كتاب دى بروس[1] الفرنسى عن تاريخ الملاحة حول أرض الجنوب ، والذى كان يحوى عدة بيانات هامة عن القارة الجنوبية ، ودعوة حارة إلى الفرنسيين للقيام بعمل استكشافى فى هذه المنطقة وتكررت هذه الدعوة فى بريطانيا عام ١٧٦٦ بوساطة كالندر ، ثم جاء دارليميل ، وكان من غلاة المؤمنين بوجود هذه القارة والداعين للبحث عنها ، فألف كتاباً صغيراً جمع فيه بيانات عن الرحلات السابقة لهذا الجزء من العالم ، وأعطى مخطوطاً منه إلى جوزيف بانكس قبل أن تغادر البعثة إنجلترا . وكان من رأى دار ليميل أن هذه القارة تقع على مسافة قصيرة إلى الغرب من أمريكا الجنوبية . ولهذا السبب فان كوك عندما غادر كاب هورن فى طريقه إلى تاهيتى اتخذ كما يقول فى مذكراته « مساراً أكثر انحرافاً إلى الغرب من أيه سفينة فعلت ذلك من قبل ، ولكن هذا لم يسفر

(١) de Brosses' : Histoire des navigations aux terres Australes.

عن أى كشف حتى وصلنا إلى المنطقة المدارية حيث اكتشفنا عدة جزر » .

غادرت البعثة تاهيتى فى ٣١ يوليه ١٧٦٩ أى بعد عام من بدء الرحلة . وهنا يبدأ جانبها الشيق من الناحية الجغرافية . واصطحبت البعثة معها أحد الأهالى بناء على رغبته . وقد قدم توبيا ، وهذا اسمه خدمات جليلة للبعثة فى مراحلها التالية . وما كاد كوك يتحرك غرباً حتى عثر على مجموعة من الجزر سماها جزر الجمعية تكريماً للجمعية الملكية ، ثم اتجه جنوباً بحثاً عن القارة المنشودة ، حتى قطع ١٥٠٠ ميل ووصل إلى ٤٠° جنوباً دون أن يعثر لها على أثر فغير اتجاهه إلى الغرب ليصل فى ٧ أكتوبر إلى نيوزيلانده .

اكتشف تاسمان نيوزيلانده عام ١٦٤٢ ، ولكن هولندا لم تستطع احتلالها ، بل إن أحداً من الأوربيين لم يرها حتى وصل كوك . وكان تاسمان يظن أنه اكتشف جزءاً من القارة الجنوبية ، ولم يكن كوك يدرى عند وصوله إذا كانت هذه هى القارة الجنوبية ، ونراه يعلق على هذا قائلا « هذه الأرض أصبحت موضوعاً لكثير من المناقشات الشيقة ، ولكن يبدو أن الفكرة العامة تقول إننا وجدنا أرض الجنوب المجهولة » . لذلك عندما وصل كوك إلى الساحل الشرقى ، وهو الساحل الذى لم يره تاسمان أبداً ، قرر أن يبحر على امتداده حتى يتمكن من فحصه وأن يضع حداً لهذه المناقشات .

تحرك كوك ببطء فى اتجاه الجنوب حتى رأس « تيرن آجين » (Cape Turn Again) ثم عاد ثانية فى اتجاه الشمال لىرسم خريطة الساحل ، ثم دار حول الجزيرة الشمالية واستكشف المضيق المعروف باسمه والذى يفصل بين الجزيرتين الرئيسيتين لنيوزيلانده ، وكان تاسمان قد اعتبره خليجاً مقفلا . ثم دار حول الجزيرة الجنوبية ، وانتهى من رسمها بدقة فى مارس ١٧٧٠ . واستطاع أن يستكشف ٧٤٠٠ ميل من السواحل فى أكثر قليلا من ستة أشهر ، وأن يرسمها بدقة كبيرة ، لا تزال تشهد حتى اليوم بقدرته على الملاحظة ، وكفاءته فى المساحة البحرية . وعندما حاول أحد المستكشفين الفرنسيين أن يعمل خريطة لجزء من الساحل فيما بعد ، وجد أنه « عندما قارنت خريطتى بخريطة كوك وجدت أنها على درجة من الضبط والدقة فى التفاصيل حتى انها إدهشتنى بدرجة تفوق قدرتى على التعبير . إننى أشك إذا كانت سواحلنا الفرنسية قد رسمت بدقة أكبر » .

وبانتهاء هذه المرحلة من الرحلة ، عرف كوك أن نيوزيلانده ليست القارة المنشودة . ولكنه كان قد نفذ تعليمات الأدميرالية بالضبط ، وكان يستطيع أن يعود إلى انجلترا مباشرة . ولكنه كان يود أن يسلك الطريق الذى يكمن فيه احتمالات الكشف الجغرافى . وكان أمامه أن يعود عن طريق كاب هورن فى أمريكا الجنوبية حتى يدرس احتمال وجود القارة الجنوبية فى هذه الأصقاع ، ولكنه رأى أن يتفادى الابحار فى هذه العروض المتطرفة « فى أعماق الشتاء بسفينة لم تعتبر كافية لمثل هذه المغامرة » . ولهذا السبب أيضاً رفض كوك الابحار إلى رأس الرجاء الصالح مباشرة . وقرر أنه « يجب علينا أن نعود من جزر الهند الشرقية ، ولهذا السبب يجب علينا عند مغادرة الساحل أن نتجه غرباً حتى نقع على الساحل الشرقى لهولندا الجديدة ثم نتابع اتجاه الساحل إلى الشمال حتى نصل إلى طرفها الشمالى . وبهذه الفكرة تحركنا فى اتجاه البحر فى مطلع يوم السبت ٣١ مارس ١٧٧٠ . . . . . » . وأثبتت هذه الخطة نجاحاً كبيراً ، فقد وقع نظرهم على الأرض مرة أخرى فى ١٩ أبريل «لقد حددت موقع هذه الأرض بخط عرض ٣٨° وأعطيتها اسم نقطة هيكس (Point Hicks) الضابط الأول الذى كان أول من رآها » ولكن كوك لم ير أرضاً فى اتجاه الجنوب ورفض أن يذكر إذا كانت هذه الأرض التى اكتشفها تتصل مع تاسمانيا أو أرض فان ديمان التى اكتشفها تاسمان أم لا . وبدلا من أن

يتجه كوك جنوباً ليفحص هذا الأمر ، قرر أن يتجه شمالا على طول الساحل تاركاً هذه المسألة ، حتى عرف عام ١٧٩٨ أن تاسمانيا جزيرة منفصلة تماماً عن أستراليا .

وفى أثناء الرحلة شمالا كانت البعثة تنزل من وقت لآخر على الشاطئ وتتصل بالأهالى الذين كانوا يقابلونهم بكثير من الشك . وفى أحد الأماكن عاد بانكس ، وسولاندر بثروة من النباتات بدرجة جعلت كوك يطلق على الخليج الذى كانت تحيط به الخضرة من كل جانب اسم خليج النبات ، والذى لا يزال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم . وإلى الشمال قليلا اكتشف فى ٦ مايو موقع بورت جاكسون الذى احتلته فيما بعد مدينة سيدنى .

وبدأت الرحلة تدخل مرحلة خطيرة باقترابها من الحاجز المرجانى العظيم الذى يمتد ١٢٠٠ ميل على طول الساحل الشرقى لأستراليا . فقد وجدوا أنفسهم فى المنطقة المحصورة بين الحاجز والساحل ، وهى منطقة تقتضى كثيراً من الحذر أثناء الملاحة بسبب الشعاب التى تختفى تحت سطح الماء وتكون عقبات ملاحية خطيرة . ولمسافة ألف ميل كان هناك دائماً رجل فى مقدمة السفينة ليقيس عمق المياه تحتها ، ورغماً عن هذه الحيطة فقد وقعت أنديفر صباح يوم ١٠ مايو فى مأزق خطير كان يمكن أن يقضى على السفينة وبحارتها . فبعد أن مروا بعدد من الشعاب المرجانية الخطرة وبدا لهم أنهم دخلوا فى مياه عميقة ، اصطدمت بصخرة لم يتبينوها ، وبقيت السفينة مستقرة عليها على مسافة من الشاطئ .. وعمل الجميع على إنقاذ سفينتهم فأداروا المضخات والتواكل ما يمكن الاستغناء عنه من السفينة حتى عامت مع ارتفاع المياه أثناء المد التالى . وقد تبين فيما بعد أن السفينة قد نجت بأعجوبة حين اكتشفوا أن الثقب الأكبر فى قاع السفينة بقى مسدوداً بوساطة حجر كبير . استطاع كوك أن يقود السفينة بحذر إلى مكان مناسب على الساحل حيث رفعت السفينة على الشاطئ لاصلاحها .

وقد أثبت هذا الحادث أن السفينة كانت اختياراً موفقاً بسبب غاطسها الصغير الذى يسمح لها بالابحار فى المياه الضحلة . وفى خلال الفترة التى قضتها البعثة على الشاطئ استطاعت أن تستكشف جانباً من الأرض وأن ترى وتصطاد لأول مرة حيوان الكانجارو أكبر حيوان ثدى فى استراليا .

وفى ٤ أغسطس أنزلت انديفر إلى البحر وتحركت شمالا على طول الساحل لبضعة أيام ، ولكن القناة بين الحاجز المرجانى والساحل كانت تضيق باستمرار مما يزيد فى أخطار الملاحة حتى قرر كوك وضباطه أن يخرجوا إلى البحر عند أول فتحة فى الحاجز ، ولكنهم ما كادوا يفعلون حتى وجدوا أنفسهم فى مأزق أشد خطورة . فان الأمواج والرياح وتيارات المد كانت تدفع بهم نحو الحاجز المرجانى وبجهد كبير استطاع كوك أن يبعد سفينته عن الصخور حتى تمكن فى أول فرصة مواتية أن ينزلق مع التيار خلال إحدى الفتحات إلى المياه الهادئة بين الحاجز والساحل .

واصل كوك رحلته شمالا حتى وصل إلى الطرف الشمالى لاستراليا فى ٢١ أغسطس ونراه يكتب « إننى الآن على وشك أن أغادر الساحل الشرقى لهولندا الجديدة الذى سرت بمحاذاته من خط عرض ٣٨° حتى هذا المكان والذى لا أشك مطلقاً أن أحداً من الأوربيين قد رآه من قبل .... » .

غادر كوك أستراليا إلى غينيا الجديدة خلال ممر تورس ، وهكذا أثبت كوك أن أستراليا وغينيا الجديدة منفصلتان تماماً ، وهى حقيقة أثبتها تورس قبل قرن ونصف قبل ذلك ولكنها كانت موضع شك فى عصر كوك ، الذى نراه يعلق على بعض الخرائط ويقول فى تواضع « لقد اعتقدت دائماً قبل أن أرى هذه الخرائط أنه لم يكن معروفاً إذا كانت هولندا الجديدة وغينيا الجديدة أرضاً واحدة متصلة أم لا . لقد حسمنا الآن النقاش فى هذا الموضوع تماماً ، وكما أعتقد فان هذا

الأمر كان معروفاً من قبل ، ولكن ليس على نطاق عام ، إننى لا أدعى لنفسى أكثر من أننى أوضحت نقطة كانت غامضة » .

وصلت البعثة إلى باتافيا لتقضى بعض الوقت فى الراحة وإصلاح السفينة وتموينها ، ولكنها تعرضت لأمراض المناطق الحارة مثل الملاريا والدوسنتاريا فسقط خلال عشرة أسابيع ثلاثون من الرجال ، كان من بينهم توبيا الذى رافق السفينة من تاهيتى . ثم مات جرين الفلكى بعد أن غادرت السفينة باتافيا فى ٢٧ ديسمبر عام ١٧٧٠ فى طريقها إلى رأس الرجاء الصالح حيث قضت البعثة شهراً . وفى ١٢ مايو ١٧٧١ وصل كوك ورفاقه إلى انجلترا بعد غيبة استمرت أكثر من سنتين وتسعة أشهر .

كان تقرير كوك إلى الجمعية الملكية غير مرض تماماً ، فان رصد عبور الزهرة لم يأت بجديد فى تحديد المسافة بين الأرض والشمس . ومن ناحية أخرى لم تصل البعثة إلى حل لمسألة القارة الجنوبية . وعدا هذا فان رحلة كوك –بصرف النظر عن آثارها السياسية – قد أضافت كثيراً إلى جغرافية الكرة الأرضية . فقد أظهرت نيوزيلانده كجزيرتين منفصلتين ، وليست جزءاً من القارة الجنوبية كما ظن تاسمان ، كما أنها ضيقت النطاق الذى يمكن البحث فيه عن القـــارة الجنوبية . وبالرغم من أن كوك ليس المكتشف الأول لاستراليا فانه أضاف الساحل الشرقى بأكمله إلى المعلومات السابقة عن السواحل الأخرى ، وأثبت أن هذه القارة منفصلة تماماً عن غينيا الجديدة . واستطاع كوك أن يدعم كل هذه الاكتشافات بخرائط غاية فى الدقة .

ولعل من أهم النتائج الإيجابية لرحلة كوك ، قدرته على المحافظة على صحة بحارته فى وقت كان مرض الأسقربوط العدو الأكبر للرحلات الطويلة . ولولا الكارثة التى حلت بالبعثة نتيجة للأمراض المعدية لانتهت الرحلة دون ضحايا . فقد عرف كوك باتخاذه إجراءات مشددة لحماية صحة بحارته ، مثل تزويده البحارة بعصير الموالح وإدخال الخضروات فى الأكل والعناية بنظافة أماكن البحارة . وهكذا كان فى استطاعته أن يعلن – عندما وصل إلى باتافيا – « إننى أقول بكثير من الرضى إننى لم أفقد رجلا واحداً نتيجة المرض خلال الرحلة بأكملها » .

الرحلة الثانية :

عاد كوك إلى إنجلترا فى وقت تزايد فيه اهتمام فرنسا بالمحيط الجنوبى واحتمال الكشف عن القـــارة الجنوبية. فاكتشف كرجيولن (Kerguelen–Trémarec) فى فبراير ١٧٧٢ الجزيرة التى تعرف باسمه فى جنوب المحيط الهندى ، وعاد إلى فرنسا فى نفس الشهر الذى غادر فيه كوك إنجلترا فى رحلته الثانية . كذلك سافر ماريون (Marion–Dufrense) وكورزيت Corzet فى رحلة إلى الجنوب حيث اكتشفا جزيرة ماريون ثم جزيرة كورزيت فى يناير ١٧٧٢ . وهذه الجزر الثلاث تقع فى المحيط الهندى جنوب خط عرض ٤٥ واعتبرت بوساطة مكتشفيها كنقط متقدمة للقارة الجنوبية المنشودة .

لم تكن انجلترا بغافلة عن هذا النشاط الفرنسى فى وقت اشتد فيه التنافس الأستعمارى ، فقررت الأدميرالية الإنجليزية ارسال كوك فى رحلة ثانية ليجد حلا نهائياً لمشكلة القارة الجنوبية . وأختيرت سفينتان حديثتان حمولتهما ٤٦٢ و ٣٣٦ طناً ، ولم يدخر أى جهد فى إعدادهما لهذه المهمة بدرجة تفوق أى بعثة سابقة . تولى كوك قيادة السفينة الكبيرة رزوليوشن (Resolution) بينما قاد السفينة الثانية أدفنتشر (Adventure) الكابتن فورنو (Furneaux) الذى خدم كملازم ثان تحت قيادة واليس فى بعثة سابقة . وفكر العالم الطبيعى بانكس الذى رافق كوك فى رحلته الأولى أن ينضم إليه فى مهمته الجديدة ولكن هذه الفكرة لم تتحقق وسافر مع كوك عالم فى التاريخ الطبيعى – من أصل ألمانى – هو جوهان

فورستر (Johann Forster) مصطحباً ابنهجورج ، الذى شارك كوك فى كتابة رواية هذه الرحلة .

وفى يوم ١٣ يوليه ١٧٧٢ غادرت السفينتان بليموث ، وكانت التعليمات المكتوبة بتاريخ ٢٥ يونيه تدل على الأثر الكبير الذى تركته الرحلات الفرنسية على البرنامج الموضوع ،والذى يشرحه كوك فيقول« كان علىّ بعد مغادرة رأس الرجاء الصالح أن أتقدم إلى الجنوب وأن أبذل جهدى كى أقع على رأس سريكمسزيون التى قال عنها مسيو بوفيت إنها تقع فى خط عرض ٥٤° جنوباً وخط طول حوالى ٢٠َ ١١° شرق جرينتش . فاذا اكتشفت هذه الرأس ، كان على أن أثبت إذا كانت جزءاً من القارة التى جذبت أنظار الجغرافيين والملاحين القدامى ، أو إنها جزء من جزيرة . فاذا ثبت الاحتمال الأول ، كان على أن أبذل جهدى فى اكتشاف أكبر جزء منها بقدر ما أستطيع وأن آخذ بيانات وملاحظات من كل نوع بقدر ما يكون نافعاً للملاحة أو التجارةأو يعد تقدما فى العلوم الطبيعية . وقد تلقيت أيضاً توجيهات بأن ألاحظ عدد السكان ، إن وجدوا ، وما يتصفون به من ذكاء ومهارة ومزاج واستعداد للتعاون . وأن أبذل جهدى بكل الوسائل الصحيحة كى أنشئ صداقة وأعقد حلفاً معهم ، وأن أقدم لهم هدايا من الأشياء التى يقدرونها ، وأن أدعوهم للتجارة ، وأن أظهر لهم كل أنواع الأدب والاحترام . أما إذا أثبت أن هذه الرأس جزء من جزيرة فقط ، أو إذا لم أتمكن من العثور على الرأس المذكورة فان على فى الحالة الأولى ، أن أعمل المساحة اللازمة للجزيرة ثم أواصل الاتجاه جنوباً ، بقدر ما أستطيع الحكم على احتمال العثور على القارة الجنوبية وهو ما يجب أن أفعله أيضاً فى الحالة الأخيرة ثم على أن أتقدم شرقاً لمزيد من البحث عن القارة المذكورة ، كذلك أن أكتشف الجزر التى يحتمل وقوعها فى هذا الجزء الذى لم يستكشف بعد من نصف العالم الجنوبى ، وأن أبقى فى العروض المتطرفة وأن أنفذ اكتشافاتى كما ذكر سابقاً بالقرب من القطب بقدر ما تسمح الظروف حتى أكون قد درت حول العالم ، وعندئذ يجب أن أتقدم نحو رأس الرجاء الصالح ومنها إلى إنجلترا » .

غادرت السفينتان رأس الرجاء الصالح فى ٢٢ نوفمبر ١٧٧٣ فى طريقهما نحو الجنوب وبالرغم من الصيف الجنوبى فقد وزعت الملابس الثقيلة على البحارة، إذ كان الجو يزداد برودة . وسرعان ما شوهد أول جبل ثلجى فى ١٠ ديسمبر ؛ ثم حاول كوك البحث عن أرض بوقيه التى كان يعتقد أنها رأس متقدمة للقارة الجنوبية ، ولكنه لم يجد أى أثر للقارة أو الجزيرة . وفى يوم ١٧ يناير ١٧٧٣ ، عبرت البعثة الدائرة القطبية الجنوبية لأول مرة فى تاريخ الإنسان ولكن كوك لم يقنع بهذا ، وواصل التقدم حتى خط عرض ١٥َ ٦٧° فى جو متزايد البرودة وظروف ملاحية خطرة بسبب الضباب والأمطار والثلوج والجبال الثلجية ، حتى اضطر للعودة قائلا « لم نستطع التقدم أكثر من ذلك فان نطاق الثلج كان مغلقاً تماماً إلى الجنوب على طول المسافة من الشرق إلى الجنوب الغربى دون أقل شاهد لوجود أى فتحة فيه » . وفى هذه الظروف افترقت السفينتان ولم تتمكنا من التلاقى إلا بعد ثلاثة أشهر فى نيوزيلانده التى اتفق على اختيارها من قبل كنقطة التقاء فى مثل هذه الأحوال ، وكمكان مناسب لقضاء فصل الشتاء .

ومن نيوزيلانده قصد كوك تاهيتى فوصلها فى ١٦ أغسطس ١٧٧٣ ومن هناك زار عدداً من الجزر واستكشفها من بينها مجموعة جزر « تونجا » التى سماها جزر فريندلى نظراً للعلاقات الطيبة بين سكانها وحسن استقبالهم للغرباء .

وقبل أن يتجه إلى الجنوب فى مهمته الأساسية قرر المرور بنيوزيلانده وبالقرب من ساحلها افترقت السفينتان مرة ثانية فى ٣٠ أكتوبر وفشلت كل محاولة للتلاقى وفى ٢٥ نوفمبر بدأ كوك بحثه للمرة الثانية فى

اتجاه الجنوب وفى خلال هذا الصيف الجنوبى اخترق الدائرة القطبية مرتين عند خطى طول ١٤٠° ، ١٠٦° غرباً ، ووصل إلى خط عرض ٧٠° جنوباً وفى يوم ١٤ ديسمبر شاهدوا أول جبل ثلجى وفى خلال الأسابيع الستة التالية أبحرت البعثة فى جو قطبى ، تعطينا قصة الرحلة وصفاً تفصيلياً له ، هو أول تسجيل دقيق لهذه الأجواء . ففى ١٤ ديسمبر قابلوا عدداً من الجزر الثلجية الضخمة ثم كمية من الثلج المفكك ، وبتقدمهم أكثر ازداد عدد الجزر الثلجية بسرعة كما ازدادت كميات الثلج المفكك . وسرعان ما أفلتوا من هذه الثلوج ، ولكن بعد أن تلقوا عدة صدمات قاسية من الأجزاء الكبيرة رغم حرصهم على تفاديها . وفى ٣٠ يناير ١٧٧٤ ، فى الصباح الباكر ، رأوا سحباً فى الأفق إلى الجنوب ، فى أضواء بيضاء ثلجية غير معتادة ، فعرفوا أنها تدل على اقترابهم من حقل من الثلوج . وسرعان ما كانوا على مقربة من حافته ورأوه منتشراً شرقاً وغرباً على امتداد البصر ، وشاهدوا من مكانهم النصف الجنوبى من الأفق مضاء بأشعة من الضوء المنعكس من الثلج إلى ارتفاع كبير ، ورأوا بوضوح ٩٧ جبلا ثلجياً فى وسط الحقل وكان كثير منها فى منتهى الضخامة وكانت تبدو على شكل سلسلة من الجبال يرتفع فيها الواحد فوق الآخر حتى يضيعوا فى السحاب . وكانت الحافة الخارجية أو الشمالية لهذا الحقل مكونة من ثلج مفكك مفتت ولكنه متراكم بعضه على بعض بدرجة لا تسمح لأى شىء باختراقه . وكان يبلغ الميل عرضاً وفى وسطه يوجد ثلج صلب فى جسم واحد متصل تبين أنه من المستحيل التقدم فى هذا الاتجاه .

وصل كوك فى بحثه جنوباً حتى خط عرض ١٠َ ٧١° وهى أقصى نقطة بلغها إنسان جنوباً وظلت كذلك مدة نصف قرن بعد كوك . وهنا وصل كوك إلى القرار التالى « سوف لا أقول أنه من المستحيل فى أى مكان التقدم أكثر إلى الجنوب ولكن المحاولة قد تصبح عملا خطيراً ومتهوراً أعتقد أنه لا يخطر على بال رجل فى مثل موقفى. وقد كان من رأيى فعلا ومن رأى معظم الموجودين على السفينة أن هذا الثلج يمتد مباشرة حتى القطب ، أو ربما يتصل على أرض ما ويحيط بها منذ أيام سحيقة . وأنه هنا ، أى فى جنوب خط العرض الذى بلغناه يتكون فى الأصل كل الثلج الذى رأيناه متناثراً فى الشمال ، والذى ينفصل فيما بعد بواسطة العواصف أو عوامل أخرى ، وتحمله التيارات إلى الشمال والتى لوحظ أنها تتجه دائماً فى هذا الاتجاه فى هذه العروض المتطرفة . وعندما اقتربنا من هذا الثلج سمعنا بعض طيور البنجوين ولكننا لم نرها أو نرى طيوراً أخرى أو أى شىء آخر يجعلنا نعتقد أن هناك أرضا على مقربة منا . ولكننى أعتقد أنه لا بد أن يكون هناك أرض إلى الجنوب خلف هذا الثلج . وإذا وجدت هذه الأرض فانها سوف لا تعطى ملجأ أفضل لهذه الطيور أو أى حيوانات أخرى من الثلج نفسه والذى لا بد أنه يغطيها تماماً » .

وبدلا من أن يعود كوك إلى الجزر التى يعرفها فى الشمال فانه اتجه إلى الشمال الشرقى حتى وصل إلى جزيرة ايستر فى شرق المحيط الهادى ومنها إلى تاهيتى ثم زار عدداً من الجزر المعروفة واكتشف جزيرة كبيرة هى نيو كاليدونيا (New Caledonia) واستكشف سواحلها واتصل بأهلها ثم اكتشف جزيرة نورفولك قبل أن يصل إلى نيوزيلانده لتموين السفينة وإعطاء بعض الراحة لرجاله. وهنا استطاع أن يجد بعض الشواهد التى تدل على أن سفينته الثانية « ادفنتشر » قد سبقته إلى زيارة نيوزيلانده . غادر كوك نيوزيلانده فى ١٠ نوفمبر إلى الجنوب الغربى حتى خط عرض الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية ثم تقدم فى اتجاه الشرق حتى وصل إلى كاب هورن دون أن يرى اليابسة ، وهكذا سقط أى احتمال لوجود القارة المنشودة فى جنوب المحيط الهادى بين خطى عرض ٥٠°، ٦٠° . واستمر

كوك فى اتجاهه شرقاً فاكتشف جزيرة ساوث جورجيا فى جنوب المحيط الأطلنطى وهى جزيرة صخرية قاحلة مغطاة بالثلوج القطبية ، وتعد نقطة متقدمة للقارة القطبية الجنوبية . ثم واصل تقدمه شرقاً فاكتشف مجموعة جزر ساندويتس الجنوبية ، وأبحر على مقربة من جزيرة بوفيه ولكنه لم يرها ، حتى ألقى مرساه السفينة أمام رأس الرجاء الصالح فى ٢١ مارس وهنا عرف أن السفينة « ادفنتشر » قد سبقته فى العودة بسنة كاملة . وبعد زيارة قصيرة لجزر الآزور وصلت « رزوليوشن » إلى إنجلترا فى ٣٠ يوليه ١٧٧٥ بعد أكثر من ثلاث سنوات وبعد أن قطعت أكثر من ٦٠ ألف ميل أى ما يكفى للدوران حول الأرض مرتين .

ولعل أكبر نجاح حققه كوك فى هذه الرحلة ، هو نهايتها السعيدة فلم يفقد من بين ١١٢ رجلا سوى ثلاثة بسبب الحوادث ورجلا واحداً فقط بسبب المرض . وكان من المعتاد أن تفقد السفن ثلث بحارتها فى هـــذه الرحلات الطويلة ، ولكن اهتمام كوك بنظافة عنابر البحارة وملابسهم وإصراره أن يأكلوا وجبات متنوعة ، وأن يحتوى طعامهم على خضروات ولحوم طازجة ثم تزويد مخازن السفينة بالخضروات والحساء المحفوظ كل هذا حفظ للبحارة صحتهم فلم يمت واحد منهم بمرض الأسقربوط .

كان البرنامج الذى قام به كوك برنامجاً هرقلياً . فى وقت كان تحديد موقع السفينة فى البحر عملا صعباً معرضاً لكثير من الخطأ . وكانت الصعوبة المعتادة تكمن فى تحديد خطوط الطول وكان كثير من الاكتشافات تفقد أو يصعب العودة إليها مثل ما حدث فى جزيرة بوفيه . ولكن كوك استعان بالأدوات الملاحية الحديثة وكان من أهمها جداول ملاحية جديدة وكرونومترات غاية فى الدقة ، مما ساعده على بلوغ الدقة الكبيرة التى عرفت بها خرائطه وتقاريره .

نالت رحلة كوك الثانية شهرة واسعة وحتى نتبين قيمتها نذكر أن أحد المستكشفين الفرسيين وهو فرانسوا لابروز أرسل فى رحلة استكشافية إلى المحيط الهادى بعد عشر سنوات من رحلة كوك (١٧٨٥ — ١٧٨٨) . ورغم كفاءته وبرنامجه الحافل فان رحلته أثمرت قليلا ولكنه تقبل الأمر راضياً وأعلن فى كثير من السماحة « لقد أنجز مستر كوك الكثير من الأعمال — حتى إنه لم يترك لى شيئاً سوى الاعجاب بعمله . . . » .

واندع الآن كوك يكتب تقريره عن هذه الرحلة مبيناً نتائجها ، يقول كوك : « لقد قمت الآن بالدوران حول المحيط الجنوبى فى خط عرض متطرف ، واخترقته بطريقة لا تدع مجالا للشك فى احتمال وجود قارة إلا بالقرب من القطب أبعد من أن تصلها الملاحة . وبزيارتى مرتين للبحر المدارى فاننى لم أنته برأى قاطع بالنسبة للكشوف القديمة فقط ، ولكننى قمت باكتشافات جديدة كثيرة ، وتركت — كما أعتقد — القليل جداً الذى يمكن عمله فى هذا الجزء من العالم . ولهذا فاننى راض ، تماماً لأن الهدف من هذه الرحلة قد تحقق من جميع الوجوه ، وأن نصف الكرة الجنوبى قد استكشف بدرجة كافية وأن نهاية قاطعة قد وضعت للبحث عن قارة جنوبية ، والتى أثارت — فى بعض الأوقات — انتباه بعض القوى البحرية خلال القرنين الماضيين تقريباً ، كما كانت نظرية محببة بين الجغرافيين من كل العصور .

إننى لا أنكر أن هناك احتمالا لوجود قارة أو مساحة كبيرة من اليابسة بالقرب من القطب ، بل على العكس إننى من أنصار هذا الرأى ، بل أن هناك احتمالا أننا رأينا جزءاً منها . فهذا البرد الشديد والجزر الكثيرة والحقول الواسعة من الثلج العائم ، كلها تنحو إلى إثبات أنه لا بد أن يكون هناك أرض إلى الجنوب . ولقد أوردت بعض الأسباب التى تجعلنى أقتنع أن أرض الجنوب هذه لا بد أنها تقع أو تمتد امتداداً أكبر نحو

الشمال فى مواجهة المحيط الأطلنطى الجنوبى والمحيط الهندى وإننى أضيف إلى هذه الأسباب البرد الذى عانيناه إلى درجة أكبر فى هذه البحار عن المحيط الهادى الجنوبى عند نفس خطوط العرض ... » .

ثم يختتم حديثه معلقاً على نتائج رحلته فيقول : « إذا كنا قد توصلنا لاكتشاف قارة هناك لكنا أقدر على إرضاء حب الاستطلاع ، ولكننا نرجو ونحن لم نجدها بعد كل هذا البحث المضنى أن نقلل من الحدس والتخمين فى المستقبل بشأن العوالم غير المعروفة والتى لا تزال فى حاجة إلى الاستكشاف . ولكن مهما كان حكم الرأى العام على الأشياء الأخرى فاننى — بكثير من الرضى ودون أن أدعى أى فضل سوى قيامى بالواجب — أختتم هذا الحديث بملاحظة تدعمها الحقائق وهى أننا اكتشفنا امكانية المحافظة على الصحة بين هذا العدد من ركاب السفينة ، ولمثل هذه المدة الطويلة ، وفى مثل هذه الأجواء المتنوعة ، وفى وسط هـــذه الصعوبات والمتاعب المستمرة . وأن هذا سوف يجعل هذه الرحلة مرموقة بين المهتمين بهذه الناحية الإنسانية ، عندما يفقد النقاش حول القارة الجنوبية قدرته على جذب الانتباه وإشاعة الفرقة فى الرأى بين الفلاسفة » .

الرحلة الثالثة :

عاد كوك إلى وطنه حيث نال كثيراً من الشهرة وأسبغ عليه كثيراً من التقدير فاستقبله الملك جورج الثالث ورقى إلى رتبة أعلى وعين مديراً لمستشفى جرينتش . وخلال العام التالى لعودته كانت البحرية البريطانية تستعد لارسال بعثة إلى شمال المحيط الهادى للبحث عن الممر الشمالى الغربى الذى أوردنا عجالة عنه فيما سبق . ولما كانت المحاولات السابقة قد بدأت جميعاً من المحيط الأطلنطى لاختراق شمال القارة الأمريكية من الشرق إلى الغرب ، فقد كان هناك فسحة من الأمل فى العثور على هذا الممر بالبحث فى الاتجاه المعاكس وخاصة أن الساحل الأمريكى الغربى المطل على المحيط الهادى لم يكن معروفاً بدرجة كافية . وطلب من الكابتن كوك الاشتراك فى اختيار قائد لهذه البعثة ، ولكنه عرض أن يتولى قيادتها بنفسه فقبل هذا العرض فى الحال وبترحيب كبير . ولعل هذه القصة تلقى بعض الضوء على شخصية كوك وهو الذى أمضى معظم سنى حياته فى أسفار بحرية بعيدة ، وكان يستطيع — وهو الزوج والأب — أن يركن إلى الراحة والدعة ليتمتع بما نال من الشهرة والمجد .

كان الهدف الرئيسى من رحلة كوك الثالثة هى البحث عن الممر الشمالى الغربى ، وقد عرفنا كيف فشلت الجهود الأولى للبحث عن هذا الممر . وفى عام ١٧٤٥ أعلنت الحكومة البريطانية عن جائزة قدرها ٢٠ ألف جنيه لأية سفينة تجارية بريطانية تكتشف ممراً من خليج هدسون . وحاول عدد من السفن دون جدوى أن تنال هذه الجائزة ، فقررت الحكومة تعديل شروط الجائزة لتشمل السفن الحربية ، وأن يمتد البحث إلى مناطق أخرى غير خليج هدسون . وهكذا استقر الرأى أن تكون مهمة كوك الأساسية هى البحث عن هذا الممر من الساحل الباسيفيكى . وتعكس الأوامر الصادرة إلى كوك الأفكار السائدة حينئذ عن موقع هذا الممر ، فتطلب إليه عند وصوله إلى هذا الساحل أن يتقدم شمالا على طول الساحل ... « حتى خط عرض ٦٥° أو أكثر إذا لم تعترضك أراضى أو ثلوج وأن تأخذ حذرك أن تضيع أى وقت فى استكشاف انهار أو فتحات أو لأى سبب آخر ، حتى تصل إلى خط العرض ٦٥° المذكور سابقاً . وعندما تقطع هذه المرحلة ، عليك أن تبحث بدقة عن مثل هذه الأنهار أو الفتحات وتستكشفها بقدر ما يبدو من امتدادها واتجاهها نحو خليج هدسون أو خليج بافين . وإذا تبين لك من ملاحظاتك أو من المعلومات التى قد تحصل عليها من الأهالى . . أن هناك تأكيداً أو حتى احتمال لوجود ممر

مائى يصل إلى الخليجين السابقين أو إلى واحد منهما ، فعليك فى هذه الحالة أن تبذل أقصى ما لديك من جهد لتمر خلاله . . . » .

وهناك أهداف جانبية للرحلة تظهر فى الأوامر الصادرة إلى كوك ، الذى كان عليه فى طريقه إلى شمال المحيط الهادى أن يستولى على الأراضى التى لم تكتشف بعد بواسطة الدول الأخرى وأن يفحص بدقة بعض الجزر التى قيل إنها شوهدت مؤخراً بواسطة الفرنسيين عند خط ٤٨° جنوباً وعلى خط الطول التقريبى لجزر موريشياس .

عاد كوك مرة ثانية إلى سفينته رزوليوشن ووضعت تحت لوائه سفينة ثانية هى ديسكافرى (Discovery) بقيادة كابتن كلارك وتولى الملازم كنج أخذ الأرصاد الفلكية اللازمة على ظهر السفينة رزوليوشن وقام أندرسون طبيب السفينة الذى صحب كوك فى رحلته الثانية ببحوث التاريخ الطبيعى ودراسة الأهالى من حيث العادات والتقاليد واللغات . وكان بين رجال كوك « فانكوفر » الذى اشتهر كقائد لرحلة استكشافية تالية ووليم بلاى الذى عرف فيما بعد كقبطان للسفينة المشهورة بونتى التى حدث عليها العصيان بالقرب من جزر تاهيتى عام ١٧٨٩ . وصحب كوك معه أيضاً أوماى من أهالى جزر الجمعية ، وكانت السفينة ادفنتشر قد أحضرته معها إلى لندن . وقد قدم أوماى خدمات جليله للبعثة حتى غادرها فى موطنه الأصلى . كذلك حملت السفينتان عدداً من الحيوانات النافعة بقصد تربيتها فى الجزر التى سبق اكتشافها .

غادرت رزوليوشن بليموث فى ١٢ يوليه ١٧٧٦ ، وتبعتها ديسكافرى بعد بضعة أيام . وتوقف كوك فى جزر كنارى حيث يرتفع جبل تاناريف بقممه الشهيرة وحاول طبيب المركب أن يصل إلى القمة ولكن الوقت لم يسعفه بفحص الجبل الذى درسه الكسندر فون هومبولت فيما بعد بدقة كبيرة فى عام ١٧٩٩ (١) .

اتخذ كوك طريقه نحو رأس الرجاء الصالح ، ومنها اتجه إلى جزيرة كرجيولن التى اكتشفها الفرنسيون جنوب المحيط الهندى . وكان كرجيولن قد أذاع تقارير مشجعة عن هذه الجزيرة ولكن كوك وجدها مجدبة وموحشة إلى أقصى درجة . وأعلن طبيب المركب « ربما لم يكتشف مكان فى أى من نصفى الكرة عند نفس خط العرض يعطى ميداناً فقيراً لعالم التاريخ الطبيعى مثل هذه البقعة الجرداء » .

بعد هذا قضى كوك بضعة أيام فى تاسمانيا ثم أسبوعين من شهر فبراير ١٧٧٧ فى نيوزيلانده وأمضى ثلاثة شهور فى دراسة جزر فريندلى قبل أن يصل فى ١٢ أغسطس إلى جزيرة تاهيتى .

وفى ٢ نوفمبر غادر كوك تاهيتى فى طريقه إلى مهمته الأساسية فى شمال الباسيفيكى . وإلى الشمال من خط الاستواء عثر كوك على جزيرة مرجانية صغيرة تعلوها أشجار جوز الهند ، حيث قضت البعثة عيد الميلاد وسمتها فى هذه المناسبة جزيرة كريسماس . وفى ١٨ يناير ١٧٧٨ شاهد كوك مجموعة جزر أسماها جزر ساندويتش نسبة إلى القائد الأول للبحرية الإنجليزية وواحد من غلاة المتحمسين للكشوف الجغرافية . وقد ظلت هذه الجزر تعرف بهذا الاسم مدة طويلة قبل أن تحمل اسم جزر هاواى بلسان أهلها الأصليين . ولا تعد هذه الجزر اكتشافاً جديداً لكوك فقد عرفها الأسبان فى القرن السادس عشر ، ولكن شيئاً لم يعرف عنها خلال المائتى عام السابقة . قام كوك بدراسة هذه الجزر بقدر ما اتسع له الوقت — ومن أكثر ملاحظات البعثة طرافة أنه بالرغم من المسافة التى تفصل هذه الجزيرة عن باقى جزر المحيط الهادى فان لغتها قريبة الشبه من

(١) أنظر الكون لألكسندر فون هومبولت « للدكتور سليم أنطون » تراث الانسانية ، المجلد الثانى ، العدد الثالث .

لغة تاهيتى حتى أمكن التفاهم مع الأهالى بسهولة . ولفت نظر البعثة ما يتمتع به الأهالى من طبيعة سمحة وانطلاق كبير وقوام جميل وخبرة فى السباحة .

وفى ٧ مارس وصلت البعثة إلى الساحل الغربى لأمريكا الشمالية الذى كان يعرف فى ذلك الوقت باسم نيو البيون New Albion . وهنا كان كوك يقف على عتبة استكشافات جغرافية جديدة فهذا الساحل شمال ٤٠° شمالا يعد – باستثناء المناطق القطبية – أكثر سواحل القارات حاجة إلى الاستكشاف والدراسة . وكانت كل المعلومات القليلة لدى كوك قد تجمعت نتيجة لرحلات الأسبان على طول الساحل إلى الشمال من مستعمراتهم فى غرب المكسيك .

واصلت البعثة سيرها شمالا بمحاذاة الساحل وعند منطقة سماها كوك رأس فلاترى Cape Flattery (١٥َ ٤٨° شمالا) كتب كوك يقول «عند خط العرض هذا وضع الجغرافيون مضيق جوان دى فوكا الخيالى . أننا لم نر شيئاً يشبهه أو وجدنا أقل احتمال لوجود مثل هذا الشيء» .

وفى ٢٩ مارس وجدت السفينتان مرفأ ملائماً لها فى خليج نوتكا على الجانب الغربى لجزيرة عرفت فيما بعد باسم جزيرة فانكوفر ، لكن كوك لم يتبينها كجزيرة وهنا قضت البعثة شهراً فى إصلاح السفينتين وقلاعهما بواسطة الأخشاب المتوفرة بكثرة . وكانت هذه المدة فرصة كافية للراحة وتموين السفينتين والاستعداد للمرحلة التالية من الرحلة . كذلك أمكن للبعثة أن تقيم صلات طيبة مع الأهالى ، وأن تعرف الكثير عن عاداتهم وطرق معيشتهم .

أبحر كوك إلى الشمال فى محاذاة الساحل ولكن دون أن يراه إلا لماماً ، فقد اضطره الجو العاصف من ناحية ورغبته فى الوصول إلى المنطقة الشمالية بسرعة إلى التغاضى عن هذه الفرصة لرسم خريطة لساحل . وهو فى هذا كان ينفذ الأوامر الصادرة إليه بعدم إضاعة الوقت قبل الوصول إلى المنطقة المنشودة التى ما كاد يصلها حتى بدأ يتفحص الساحل بدقة وخاصة فتحات الخلجان ومصبات الأنهار . واستمر يتابع ساحل الاسكا ويشاهد جبالها العالية ثم مر على جزر الوتيان حتى يصل إلى طرف أمريكا الشمالية فى أقصى الغرب ثم يدخل بحر بارنج ثم مضيق بارنج الذى يفصل أمريكا الشمالية عن آسيا والذى لا يزيد عرضه عن ٥٥ ميلا ويصل المحيط الهادى بالبحر القطبى الشمالى .

وكان فيتاز بارنج (Vitus Bering) الدانمركى قد اكتشف هذا المضيق عام ١٧٢٨ وهو فى خدمة بطرس الأكبر قيصر روسيا . ورغم أن وجود هذا المضيق كان معروفاً للرحالة الروس ، فانه لم يكن معروفاً بشكل كاف فى أوربا الغربية وكانت الخرائط الأوربية ترسم الطرف الشمالى لألاسكا إلى الشرق بعيداً عن موقعه الحقيقى . وعلى هذا يعلق كوك «إن قارة أمريكا الشمالية تمتد أكثر إلى الغرب مما يمكن أن نتوقعه من الخرائط الحديثة الأكثر شهرة» . ثم يضيف «وهذا يجعل وجود ممر إلى خليج بافين أو خليج هدسون أقل احتمالا أو على الأقل يدل على أنه لا بد أن يكون أكثر امتداداً . . . .» .

دخل كوك ممر بارنج وتقدم فى البحر القطبى الشمالى على كل من الجانبين الأمريكى والأسيوى ولكن البحر كان مليئاً بالثلوج حتى أصبح التقدم مستحيلا . وكان الشتاء يقترب فقرر كوك العودة إلى الجنوب بعد أن وصل إلى خط عرض ٤٤َ ٧٠° شمالا . وفى طريق عودته قابل كوك فى جزر الوتيان مجموعة من الروس وكان رئيسهم يدعى إسماعيلوف وكان يعرف الكثير عن جغرافية المنطقة فأعطى كوك كثيراً من المعلومات والخرائط ، كما أن كوك سلمه تقريراً مرفقاً به خريطة حتى يقوم بارساله إلى رؤسائه فى البحرية البريطانية .

اختار كوك جزر ساندويتش ليمضى فيها الشتاء وما كاد يصل مياهها حتى اكتشف جزيرة هاواى أكبر جزر هذه المجموعة ، والتى لم يرها فى زيارته الأولى . قوبلت البعثة بترحاب كبير ولكن الأمور سرعان ما انقلبت عندما افتقد البحارة أحد القوارب وحاولوا استعادته من الأهالى . وكانت طريقتهم التقليدية احتجاز واحد من شيوخ الأهالى على السفينة لحين إعادة الأشياء المسروقة . ولكن هذه الطريقة التى طالما نجحت كانت وبالا على كوك . فبينما كان مع مجموعة من البحارة على الشاطئ يحاولون أن يصحبوا واحداً من الأهالى إلى السفينة ، تجمع جمهور غاضب والتحم فى معركة سريعة مفاجئة . وتأتى النهاية التعسة سريعاً ، كما يصفها تقرير البعثة :

« يرى بعض الحاضرين ، أن البحارة ، وأولئك الذين كانوا موجودين فى القوارب ، قد أطلقوا النار بدون أوامر من الكابتن كوك ، وأنه كان يحرص على أن يمنع مزيداً من إراقة الدماء ، لهذا فانه من المحتمل ، أنه فى هذه الظروف كانت إنسانيته سبباً فى مصرعه ، فقد لوحظ أنه بينما كان يواجه الأهالى لم يلق أى تهديد ، ولكنه عندما استدار ليعطى أوامره للقوارب ، طعن فى ظهره وسقط ووجهه إلى الماء . فتصايح الأهالى عندما رأوه يسقط ، وجروا جسده بطريقة غير إنسانية على الشاطئ ، حيث أحاط به الأعداء الذين تخاطفوا الخنجر بين أيديهم ، كل يحاول أن يشترك — بشغف وحشى — فى نهايته » .

وعندما أطلقت رزوليوشن مدافعها على الشاطئ ، لم ير أى أثر للقائد . وبعد أيام قليلة أعاد الأهالى إلى البحارة المحزونين بقايا من جسد قائدهم . وخيم الحزن على الرجال الذين فقدوا فى كوك قائداً شديد السهر على سلامتهم وصحتهم ، والذى ذهبت معه « روح الاستكشاف والتصميم والشجاعة التى لا تقهر » .

تولى كابتن كلارك قيادة البعثة وحاول أن يتابع مهمة كوك فوصل إلى كامشاتكا (Kamchatka) فى شرق سيبريا ثم دخل مضيق بارنج فى ٥ يوليه ولكن الثلوج عادت تعرقل سيره كما حدث مع كوك فى الصيف السابق فانقلب عائداً عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولكنه لم يعش ليتم رحلة العودة فقد مات فى ٢٢ أغسطس ١٧٧٩ . ووقعت مسئولية القيادة على كابتن جور (Gore) ، الذى كان يقود ديسكافرى منذ وفاة كوك والذى انتقل الآن إلى السفينة رزوليوشن ، بينما رقى الملازم كنج ليقود ديسكافرى والذى تعطينا يومياته القصة الرسمية للرحلة بعد وفاة كوك .

وفى ٤ أكتوبر ١٧٨٠ وصلت السفينتان إلى قاعدتهما فى إنجلترا بعد غيبة أكثر من أربع سنوات ودون أن تفقد سوى خمسة من الرجال بسبب المرض .

* * *

كان قد مضى بضعة أشهر على سفر كوك فى رحلته الأخيرة ، عندما أعلنت الجمعية الملكية اختيار كوك عضواً بها ومنحه ميدالية سير جودفرى كوبلى (Sir Godfrey Copley) الذهبية على البحث الذى تقدم به إلى الجمعية عن الطريقة التى اتخذها فى المحافظة على صحة بحارته ، بالإضافة إلى تقدير الجمعية لاكتشافاته الجغرافية العديدة ومساحته الدقيقة للسواحل المكتشفة . وكانت عضوية الجمعية الملكية فى ذلك الوقت — ولا تزال — أكبر شرف علمى يمكن التطلع إليه فى الجزر البريطانية .

منحت الميدالية الذهبية إلى كوك فى غيابه بخطبة كلها تقدير وتكريم من سير جون برمنجل . ولكن هذه الكلمات الحارة لم تصل إلى مسامع كوك على الاطلاق ، فعندما كانت عائلته وأصدقاوه ينتظرون عودته ، تلقوا خطاباً من كابتن كلارك بتاريخ ٨ يونيه ١٧٧٩ من كامشاتكا يقول فيه أن كوك لقى مصرعه فى ١٤ فبراير ١٧٧٩ .